صديقي المجهولة

ردود الرسائل

للاستاذ محمد رجب البيومي

يتنقل الإنسان في حياته من مكان إلى آخر ، ويترك قوما ليحل بين قوم ، وفق ما تتطلبه شواغل الحياة . وهو في كل ناحية يقطن بها حينا من الدهر ، يتخذ لنفسه أصدقاء يقاسمهم الود ويخلص لهم النصح ، وقد يبسط لهم جناح المعونة إن وفقه الله إلى معروف ، ثم تمضي الأيام فيجد نفسه مضطرا إلى فراق زملائه ليستأنف عملا جديدا في مكان آخر ، فيودعهم ويودعونه حاملا بين أطواء نفسه من الذكريات الطيبة ما يلذ له أن يستعيده بين الفينة والفينة ، والإنسان أقوى الحيوانات جميعها على التذكر والاستعادة ، فجميع الحيوانات — غيره — تنسى ما يعترضها في الحياة بعد انقضائه بأيام أو أسابيع ، أما الإنسان وحده فيحتفظ في مخيلته بذكريات يرجع بها إلى الطفولة والمراهقة مهما امتدت به السن في طريق الحياة فيستطيع أن يسرد لغيره أنباء طال عليها العهد ، ولكنها لم تفقد مرآتها الواضحة في خاطره ، وقد يسيح به تفكيره فيتمثل إخوانا شاطرهم الود ، ولقي منهم المعروف ، فيحن إلى ما تقدم من عهودهم الماضية ، ثم يدفع به الحنين إلى مراسلتهم والوقوف على أنبائهم ، وفي المراسلة تثبيت للمودة على البعد ، وتقوية للمحبة على النزوح ، فهي تقرب الشاسع ، وتقضي مسألة النأي . ونظرة فاحصة إلى ما خلفه الأدب العربي في تراثه الثمين من الرسائل الإخوانية تريك العجب العجيب ، فقد ازدحمت الموسوعات الأدبية بتحف خالدة من الرسائل ، وهي فوق مكانتها العالية في البلاغة والمنطق ، تدل على الشعور الطيب الذي حفز أصحابها لتسطيرها وإنشائها ، وتنبئ عما منحوه من إخلاص في الحب ، وصدق في الوفاء ، وإخلاص المرء وسام ناصع يتزين به ، فهو الدليل المقنع على مروءته ونبله ، كما يبرز للناس معدنه الحقيق دون بهرجة وتزييف !!

ونحن في عصرنا الحاضر نغرق في أعمالنا المادية إلى آذاننا ، ونستهلك أوقاتنا جميعها فيما نأمل منه النفع والكسب ، فلا يجد الكثيرون وقتا صافيا للمراسلة في زعمهم . وقد يتطوع بعض من جبلوا على الوفاء والبر ، بالسؤال عن أصحابه ، فيسطر الصحيفة المخلصة إلى من يصطفيه ، وتمضي الأيام فلا يجد ردا يسعفه بأنباء صاحبه ، فيسطر رسالة أخرى مبقيا على ما يدخره من محبة ورود ، فيأبى الرد أن يعود إليه أيضا !! وأنت تعجب حين تسمع من يرددون هذه الشكوى في أسف وحيرة ، بل إن العجب ليبلغ منك أقصاه حين تقابل في الطريق من بعثت إليه رسائلك ، فيخبرك أنه حظي بقراءتها ، وأنس بلقائها ، غير أن ظروفه الخاصة لم تمكنه من الرد السريع !! وكأنه لا يجد خمس دقائق يسطر فيها فوق قرطاسه ما يحتمه الواجب اللزم ، وإذا كان من الأمور المخجلة أن تحيي زميلك في الطريق تحية عابرة ، فلا يرد عليها أجمل رد ، فكيف بمن تتذكره على البعد ؟ فتسطر إليه أنباءك وتسأله عن أنبائه ثم لا تظفر بعد ذلك بخطاب مريح !!

هذه مشكلة خلقية اليمة . تدل دلالة واضحة على ما يغمرنا من تدابر وتقاطع ، وتنبئ عما ينقصنا من يقظة ووعي ، وهي كجميع مشاكلنا الاجتماعية ناجمة عن إهمال التعليم الخلقي في محيطنا الشعبي ، فنحن في معاملاتنا الشخصية لا نتقيد بحدود واضحة المعالم ، بينة السوى ، فندرس الأخلاق دراسة عملية ، ونطبقها تطبيقا ملزما واعيا ، بل نتقيد بقشور تافهة نقرأها ولا نتقدها في أكثر الأحيان ، وأقول — في صراحة — إنه ليست لدينا حدود خلقية ، تلقن في المدارس ، وتذاع في الصحف ، وتتناقل بين الناس ، ولكننا نطبع علاقاتنا الاجتماعية بطابع التقليد والمحاكاة ، فالصغير يقلد الكبير ، والمتأخر يحاكي المتقدم ، إذ يعيش معه في محيط واحد ، ولا عليه إذا أخطأ بعد ذلك ، فقد وقع في الخطأ من يفوقه ويكبره ! وحسبك أن تكون زلة الكبير دفاعا ملجما يتقدم به الصغير ، وحال كهذه الحال يجب أن تزعزعها العواصف الهوج

وواضح أن البريد في عهدنا الحاضر قد قطع أبعد أشواطه في ميدان السرعة ، حتى ليمكن الإنسان أن يراسل أخاه وراء

لأميال الشاسعة . والمسافات القاصية ، فتصله الرسالة فى اليوم الذى كتبت فيه بأجر لا يقوم له اعتبار ، فلم لا نستغل هذه الأداة الطيعة فى توثيق العلائق وتقوية الروابط بمجتمع مفكك متدابر . وليت شعرى كيف نكون لو تقدم بنا الزمن قرونا عدة ، فرأينا العهد الذى يقطع فيه البريد شهورا وأسابيع حتى يقع فى متناول صاحبه البعيد ، وقد نجد أثناء هذه المدة ظروف تقلب أنباء الرسالة وصاحبها رأسا على عقب ، والمرء قليل بنفسه ، كثير بإخوانه ، فإذا قطع صلته الأخوية ، بمن أنس إليهم حينا من الدهر ، وسعد بلقائهم فترة طويلة ، فسيخسر الشىء الجليل . وكثيرا ما أقع فى حيرة محجلة حين يقابلنى أحد الزملاء فيسألنى عن صديق يعرف ما كان بينى وبينه من الود الأكيد فلا يجدنى ملما بأنبائه وأخباره ، وكأننا لم نتقابل قبل الآن ، أو لطول اجتماع لم نبت ليلة معا — كما قال متمم — وإن أوجه الكلام لتضيق فى وجهى حين أهم بإجابة هذا السائل ، فماذا عسى أن أقول له ؟ أأخبره أنى راسلته متسائلا عن أنبائه فلم أظفر برد ؟ أم أظهر أمامه عاقا فليظا فأعلمه أنى لم أتصل به منذ فارقته ؟ أم أبسط إليه ما يغمر مجتمعنا الخلقى من تقصير وإهمال ؟ ترى ماذا يكون ؟ وأنت تبحث عن سبيل البذر فى تقصير المقصرين فلا تجده بحال ، بل إنى أعلن للقراء أن هؤلاء لا يتمتعون بضمير حى متيقظ ، وأن من لا يرد التحية بأحسن منها جدير أن ينسلخ من ثياب الإنسانية . ولن نرسل الكلام على إطلاقه ، فنحن نعلم أن من الرجال من تتزاحم أمامهم الرسائل ، وتتكدس فوق مكاتبهم الخطابات ، فلا يجدون فى فراغهم الضيق ما يكفى للاجابة والتعليق ، وهؤلاء فى العادة لا يقصرون فى حقوق من اتصلوا بهم اتصالا شخصيا ، وعرفوهم معرفة وثيقة ، وإنما يفرطون فى جانب من يشغل فراغه بمراسلة العظماء والموهوبين فى غير طائل ، وهم معذورون فى هذا التفريط إذ عدمت الرابطة الشخصية ، وضاق الوقت عن الإجابة المحيطة ، فلا تؤاخذهم فى ذلك ، وإنما تؤاخذ من يقصر فى حقك ، وقد خالطته بنفسك ، وأفضى إليك — يوما ما — برغباته وخلجاته ثم فرق بينكما الزمن ، فنسى أمسه ، وفرغ ليومه ، وتجاهل حقوق المودة ! ذلك عيب شنيع .

٣٥ ، ٤٤

ونحن نتكلم هنا عن الرسائل الصادقة الخالصة لوجه المودة والوفاء فلا نتحدث عن الرسائل النفعية ، التى يقصد بها أصحابها قضاء أرب مادى ، أو استغلال نفوذ شخصى ، فالسكوت عنها — فى بعض الحالات — يجد مبرراته وظروفه ، وإن كان الأجدر بصاحب الخلق الرفيع أن يسعى حسب طاقته فى نفع أصدقائه ، ما لم يؤد به مسعاه إلى ضرر إنسان ما ، فإذا لم تسعفه النتيجة المرتقبة ، أعلن أسفه إلى صاحبه فى رسالة صادقة . ورب خطاب رقيق أراح الضمير وأثلج الصدر ، وإن لم يعد بالثمرة المشتهاة

إن من المؤلم حقا أن تنقطع الروابط بين الناس لمجرد ابتعادهم من مكان إلى مكان . ويزيد فى الألم أن تكون وسائل الاتصال فى متناول اليد دون أن نجد من يحرض عليها ، والمرء فى خضم الحياة هدف للمشاكل المعقدة ، والمعضلات المؤرقة ، فهو فى حاجة ماسة إلى المشورة والاستفتاء ، ومن الطبيعى أن يراسل خلصاءه مستفسرا مستنبئا ، فقد يجد لديهم الحل المريح فى غير عناء ، ومن المضحك أن المرء فى أغلب أحواله — كما لك الحزين — يرى الرأى لغيره صادقا بصيرا ، وتتخطفه الحيرة فلا يراه لنفسه إلا بعد مشقة وجهد . وتعليل هذه الظاهرة سهل بين ، فالإنسان — إلا من عصم الله — شديد الخوف على نفسه ، يظن الريبة والخطر فى كل ما يقدم عليه ، فلا يكاد يخطو خطوة واحدة حتى تتقاذفه الحيرة من سبيل إلى سبيل ، لكن صديقه — فى الغالب — أقدر منه ثباتا وعزما ، فهو ينظر إلى المشكلة بعين الواقع ، طارحا ما يتراءى من الشكوك دبر أذنه ، ولا نعنى بذلك أنه قليل المبالاة بما يعترض الموقف من مصاعب ، بل نفرض فيه اليقظة والحذر مع أعصاب هادئة وجنان مطمئن ، وإن عاطفة « اعتبار الذات » لتمتد من الإنسان فتشمل ذويه وأصحابه ، وتدفعه إلى المشورة السديدة والمساندة المخلصة ، فأولى بالعاقل أن يلجأ إلى أصحابه على البعد ، يبثهم النجوى ، ويبسط أمامهم المشاكل ، وأولى بهم أن يسارعوا فى إيضاح الغامض . وحل المشكل ، فستدور عليهم الدائرة يوما ما ، ويحتاجون إلى من يشاورونه ويناشدونه ، وفى ذلك تخفيف مريح لما تمتحن به الإنسانية من ويلات ، وإن مجتمعا يتضافر